الطبيب الأندلسي

عبد الملك بن الفقيه محمد بن زهر

للأستاذ/
فاضل السباعي

١ . مقدمـة :

ليس يُجادل أحدٌ في ما حَفَل به تاريخ أمتنا من أعداد لا تحصى من الشعراء والعلماء ، على اختلاف منازعهم ومذاهبهم ، في الآداب وفي مختلف فروع العلوم . وقد وقفَ كثيرٌ من الكتّاب والمصنِّفين ، على مرّ العصور ، جهودَهم لرَصْد الأعلام من المبدعين والأفذاذ والعباقرة ، في كتب ألْفَوها ، ترجموا فيها لهم وحدَّثونا عنهم الأحاديث المستفيضة أو الموجزة حسبما توافرت لهم المعلومات . وقلّما سقط اسمُ واحدٍ من هؤلاء الأعلام في وَهْدة النسيان والعدم ، فإن مصنِّفينا ، المتتبِّعين ، لم يكونوا يَعدَمون معلومةً ما ، مهما ضَؤُل شأنها ، عن هذا العلم أو ذاك ، يتصيَّدونها في تصانيف الكتب التي سبقت أو من أفواه الرواة والمحدِّثين ، فيُودِعونها في مصنّفاتهم مطمئنّين لتَبقى للأجيال ، لنا ، نقطةً مضيئة في طريق عَبَرْناه .

ومِمّن عَثَر حظُّهم من الأعلام فلم نعرف عنهم إلا النَّزْر اليسير ، الطبيبُ الأندلسي «عبد الملك بن الفقيه محمد» ، الذي ينتمي إلى قبيلة «إياد» التي كان أفرادٌ منها قد هاجروا إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامي . وقد عاش طبيبنا عبد الملك ، المُكنّى بـ «أبي مروان» ، في القرن الخامس الهجري ، الذي شهد مطلعُه سقوطَ الدولة الأموية المروانية في قرطبة وقيامَ دول الطوائف في عديدٍ من الحواضر الأندلسية .

ولقد أشار عددٌ من المصادر التاريخية القديمة ، إلى «أبي مروان عبد الملك بن محمد» هذا ، بصفته طبيباً ذائع الصيت في عصره . ولكن أياً من تلك المصادر لم يُحدِّثنا عنه إلا لأسطر معدودات . وكان هذا الحديث المقتضب ، الذي تناقلته المصادر بعضُها عن بعض ، يُشيد بعظمة الرجل دون أن تتبيّن مظاهر هذه العظمة ، وتُثني ، هذه المصادر ، على علمه دون أن تُفصح لنا عن أنه ألّف في الطب الذي نبع فيه كتاباً أو مقالة واحدة ترك لنا فيها بصمةً من بصمات عبقريته !

وكان جديراً بهذا العَلَم أن يُطوى ذكرُه ، لولا أنه خلَّف ابناً لقَّنه الطب في حياته فغدا من أشهر أطباء الأندلس هو «زُهْر بن عبد الملك» المكنّى بـ «أبي العلاء» ؛ وخلَّف هذا بدوره ابناً طبيباً هو سَمِيُّ الجد «عبد الملك» وكُنْيَتُهُ«أبو مروان» ، الذي اشتهر في عصره وفي الأعصر التالية بكتابه «التيسير في المداواة والتدبير» ؛ ثم خلَّف ، هو الآخر ، ابناً طبيباً وشاعراً هو أبوبكر محمد بن عبد الملك» ؛ وخلَّف هذا ابناً هو الطبيب «عبدالله بن محمد» ؛ وأعقب الأخيرَ ابنُه الطبيبُ «محمد بن عبدالله !

أجل ، ستة أطباء في ستة أجيال متتابعة ، تُضاف إليهما طبيبتان أُنثيان : «أم عمرو» بنت عبد الملك بن زُهر ، وابنتُها . . . وذلك كلّه ما عزَّز مكانة الطبيب الأول «عبد الملك بن محمد» ، فما بَرِح اسمه يتردَّد في سمع التاريخ . ولكن ظلّت في النفس غُصّة : أننا لا نملك نصوصاً من وضعه تُوقفنا على مدى علمه في الطب وتجربته في الحياة !

وهكذا فإن المبادرة إلى تناول هذا الطبيب العَلَم في دراسة ، يتجاذبها عاملان متناقضان :

الأول : أنه طبيب قد اشتُهر في مدينته دانية «بالتقدم في صناعة الطب ، وطار ذكره منها إلى أقطار الأندلس» ، وأنه كان رأساً لأسرة توارثت الطب أجيالاً ستة ، على مدى قرنين من الزمان .

والعامل الثاني سلبي : أنه لم يترك لنا كتباً من تأليفه ، ولا ذكرت المصادر الواصلة إلينا شيئاً من علمه ومعرفته ، إلا رأياً له واحداً في الطب[1]، وذلك مالا يُنقع صدى ولا يُشفي غليلاً . . . لولا !

أقول : لولا . . . وأمامي المؤلَّفُ الكبير الذي وضعه حفيدُه «عبد الملك بن زُهْر» : «كتاب

التيسير في المداواة والتدبير» ، الذي اغتنى بعلم صاحبه وتجربته العلمية ، وهو الذي لم يمارس مهنةً أو هواية سوى الطب . إن هذا الكتاب ليكتسب ، في دراستنا هذه ، أهميةً قصوى ، تتبدّى في الذكريات ، الشخصية والعلمية ، التي كانت تنساب عبر قلم مؤلفه ، فيحدِّثنا عن أبيه الطبيب «أبي العلاء زُهر» ، وعن جده الطبيب «أبي مروان عبد الملك»[٢]، كلما أمدَّتْه الوقائعُ وأسعفته الذاكرة ، وهو يشرح لنا العلل والأمراض ويصف الأدوية والعلاجات . وقد كان حديثاً شيّقاً عبَّر لنا به عن حبِّه لأبويه العظيمين وتقديره لهما وبِرِّه وافتخاره . وسوف يكون ذلك معيناً لنا في رسم ملامحَ لشخص الجد عبد الملك ، موضوع دراستنا ، وفي تقديمنا قَبسات من علمه وتجربته في صناعة الطب ، مُعوِّلين ، في الوقت ذاته ، على تلك اللُّمَع الصغيرة التي أَلمَّت بها بعضُ المصادر التاريخية[٣].

٢- «بنو زُهْر» في الأندلس :

يُنسب بنو زهر الأندلسيّون إلى قبيلة «إياد بن نزار» إحدى قبائل العرب العدنانيّة ، التي كان لها ، في القرن الثالث الميلادي ، شرفٌ في أهل «تهامة» وعزٌّ ومَنَعَة ، وذلك قبل أن تهاجر إلى العراق ، وتنزل بنواحي سواد الكوفة حيث أقامت زمناً ، ثم انتشرت على نهر الفرات حتى بلغت أرض الجزيرة . وهناك حارب الإياديّون الأعاجم ، فهزموهم مرةً ولقُوا على أيديهم القتلَ والنفي مرّات . وأما ديانتهم ، فقد كانت لهم كعبةٌ خاصة بهم في «سنداد» في سواد الكوفة تُدعى «كعبة شدّاد» يعبدونها ، ثم اعتنقوا النصرانيّة ، وأخيراً الإسلام . وبعد الفتح هاجر عددٌ من الإياديِّين ، مع من هاجر من إخوتهم العرب ، إلى الأندلس ، فنزلوا أولاً في مدينة «شاطبة» شرقيّ البلاد ، ثم ما لبث أحفادهم أن تفرَّقوا في أنحاء الأندلس[٤].

وقد نُسب «بنو زُهر» (بضم الزاي وسكون الهاء) إلى «زُهر» الجد الأعلى للفرع الأندلسي ، الذي كان حيّاً في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، ومنه تفرَّع بنو زُهر الأندلسيّون ، ومنهم هذه السُّلالة الطِّيْبة الطَّيِّبة .

ولسنا ندري متى انتقل أفراد هذه الأسرة الزُهرية إلى إشبيلية ، الحاضرة الزاهرة في جنوب غربيِّ الأندلس . ولكنا نقرأ أن «الفقيه محمداً بن مروان» ــ وهو والد الطبيب الزهري الأول ــ عُرف ، بعد أن تلقّى تعليمه في عاصمة الدولة الأموية قرطبة ، «فقيهاً ، حافظاً

للرأي ، حاذقاً بالفتوى ، مقدَّماً في الشورى ، من أهل الرواية والدراية ، سمع الناس منه كثيراً ، وحدّث عنه جماعةٌ من العلماء»[٥].

وبدا أن الفقيه أبا بكر محمداً بن مروان هذا ، الذي عُمِّر طويلاً (٣٣٦ ــ ٤٢٢ هـ). قد لقي ، في أواخر عمره ، متاعبَ على يد بني عَبَّاد الذين وثبوا إلى السلطة في إشبيلية بعد سقوط دولة الخلافة مطلع القرن الخامس الهجري والتمزُّق الذي حلّ بأقطار الأندلس . فإنّ أول ملوك إشبيلية من هذه الأسرة ، «أبا القاسم محمداً بن عبّاد»[٦]، عمد ، بعد أن آل إليه أمرها من أبيه القاضي «إسماعيل بن عبّاد» سنة ٤١٤ هـ ، إلى إقصاء شريكَي الأب في إدارة شؤون المدينة ، وشدَّد قبضته على مناوئيه . وفي ذلك تَرِد إشارةٌ في المصادر التاريخية إلى أن الفقيه محمداً قد «ضاقت الدولة العَبَّادية عن مكانه ، وأُخرج من بلده ، واستُصفيت أمواله»![٧].

ويقول أحد وزراء طليطلة ، وهو الطبيب «أبو المُطرِّف بن وافد» ، في كتاب له سمّى فيه الرجالَ الذين لقيهم في حياته ، أن الفقيه أبا بكر محمداً بن مروان بن زُهر الإيادي الإشبيلي ، «قَدِم علينا[٨] من إشبيلية سنة سبع عشرة وأربعمائة» ، ويصفه بأنه «كان شيخاً وسيماً فاضلاً ، عالماً بالمسائل والآثار ، متفنناً في العلوم ، وقوراً ، أصيلاً يألم في جلوسه ، فقيل له في ذلك ، فأنشأ يقول :

سئمتُ تكاليف الحياة، ومن يعش ثمانين حَوْلًا، لا أبالك، يسأم»[٩]

وبدا أن أبا بكر قد تنقَّل بين حواضر «الثغر الأعلى»[١٠] في الأندلس ، فإن أحدهم كتب يقول : «توفي أبو بكر بن زُهر في سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة بطَلَبيرة[١١]، وبها دُفن رحِمه الله ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، بعد قدومه من وَشْقَة[١٢] من الثغر الأعلى»[١٣].

٣. الطبيب عبد الملك بن الفقيه محمد :

لم تُبيِّن المصادر التاريخيّة السنةَ التي ولد فيها عبد الملك بن محمد بن مروان بن زُهر ، وإن ذكرت لنا سنة وفاته : ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ ــ ١٠٧٨م) . وإنّا لنفترض أن عبد الملك كان يافعاً ، أو شاباً ، عام نزح أبوه عن إشبيلية[١٤]. ولكن يبدو أن الابن لم يقطع صلته بمسقط رأسه ، فالمصادر تحرص على تسميته بـ «الطبيب الإشبيلي» .

لم يتلقَّ عبدُ الملك بن الفقيه محمد مبادىء الطب في الأندلس . ولكنه ، في رحلته الكبرى إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، «دخل القيروان ومصر ، وتطبّب[١٥] هناك زماناً طويلاً»[١٦]، ثم قفل إلى الأندلس ، وقصد مدينة «دانية»، المطلةَ على البحر الأبيض المتوسط (البحر الشامي) والقريبة من «شاطبة» ، البلد الذي كان قد نزل فيه أجداده الأولون القادمون من الجزيرة العربية أيام الفتح ، كما أسلفنا .

في تلك الحقبة ، كانت دانية في يد أحد ملوك الطوائف : «مجاهد العامري»[١٧]. فلما قدم إليها الطبيبُ عبد الملك بن محمد أكرمه ملكُها «إكراماً كثيراً ، وأمره أن يقيم عنده ، ففعل ، وحظي في أيامه ، واشتُهر في دانية بالتقدُّم في صناعة الطب ، وطار ذكره منها إلى أقطار الأندلس»[١٨].

ولم تكن المعلومات ، التي تلقّيناها عن طِبِّ عبد الملك ، بأوسعَ مما وصل إلينا عن حياته . فثمة إشارتان اثنتان إلى طبِّه :

الأولى عند ابن الأبّار : «ومال إلى التفنُّن في أنواع التعاليم»![١٦]

والثانية أوردها صاعد الأندلسي : «وله في الطب آراء شاذة ، منها مَنْعُه من الحمّام واعتقادُه أنه يُعفِن الأجسام ويُفسد تركيب الأمزجة . وهذا رأي يخالفه فيه الأوائل والأواخر ويشهد بخطئه العوام والخواص ، بل إذا استُعمل على الترتيب الذي يجب ، بالتدريج الذي ينبغي ، يكون رياضة فاضلة ومهنة نافعة ، لتفتيحه المسام وتطريته للفضول وتلطيفه لما غَلُظ من الكيموسات»[٢٠].

وإذا كان ممّا يدعو إلى الإعجاب بطبيبنا عبد الملك أنه كان «يتفنُّن في أنواع التعاليم» ، التي نُرجِّح أنها تعاليمُ تتعلّق بـ «الطِب» لا بغيره من العلوم[٢١]، فإن ما يدعو إلى العجب أن «يمنع من الحمّام» ! ولكن يُلاحظ أن «المنع» — إن صحّت هذه الرواية من «معاصره» القاضي صاعد ، ونحن نعرف ما للمعاصرة من محاذير في الحكم والتقويم — يَرِد على الدخول إلى الحمّام وليس على «الاستحمام والنظافة» بطبيعة الحال[٢٢] !

إشارتان فقط ، إيجابيةٌ وسلبيّة ، وردتا في المصادر القديمة عن طبيب عظيم علا شأنه حيث كان يقيم ، حتى طار ذكره إلى أقطار الأندلس[٢٣]، وما كان لهما — لهاتين الإشارتين — أن

تُسعفا الباحثين والدارسين في تناول علم الرجل وتجربته في الطب . . . لولا «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» ، الذي ألّفه ، بعد رحيله بنحو ثمانين عاماً ، حفيدُه عبد الملك بن زُهر بن عبد الملك !

٤ – الطبيب «الابن» عبد الملك بن زُهر وكتابه «التيسير» :

عُمِّر الطبيبُ «أبو مروان عبد الملك بن زُهر» ، الذي دَرجت المصادر التاريخية على تسميته بـ «الابن»[٢٤] ، نحواً من سبعين سنة ، أو تسعين[٢٥] ، وتوفي سنة ٥٥٧هـ . وقد تتلمذ على يدي أبيه الطبيب أبي العلاء زُهر ، وعاش عمره في إشبيلية ، وتردد على مرّاكش عاصمة الدولة المرابطيّة عهدَ «علي بن يوسف بن تاشُفين» (٥٠٠ – ٤٣٧هـ) ، الذي اعتقله سنواتٍ نجهل عددها كما نجهل أسباب الاعتقال ! وكان طبيبَ الأمراء والملوك مثلما كان طبيب الشعب . وخدم «عبد المؤمن بن علي» (حكمه : ٥٤٢ – ٥٥٨هـ) أول أمراء دولة الموحّدين ، فكان طبيباً له ووزيراً . وألف ثمانية كتب في صناعة الطب ، التي لم يمارس سواها ، على غير عادة العلماء والأدباء العرب والمسلمين ، وصلنا منها ثلاثة ، أهمها : «التيسير في المداواة والتدبير»[٢٦] .

ولقد جمع هذا الكتاب ، الذي تمّ تأليفه على الأرجح في منتصف القرن السادس الهجري ، خلاصةَ علم صاحبه وتجربته في صناعة الطب . وإن قارئه ليُحسُّ – وإن لم يكن طبيباً – متعةً في قراءته وباعثاً على متابعتها حتى النهاية ، وما ذلك إلا أن أبا مروان قد كتبه بتجربة العالم وبإحساس الأديب معاً ، فأنت تجد فيه عقله وقلبه منشورين أمام ناظريك ، فتروقك سلاسةٌ في أسلوبه ، وصدقٌ في قوله ، وتدفُّقٌ في عرضه لتجاربه وابتكاراته ، وتلفحك حرارةٌ في دفاعه عن آرائه حتى بعد أن يُدركه مايدرك كلَّ كائن حي ، الموت ! يقول : «كل ما ذكرتُه في كتابي هذا وأثبتُّه ، لاشك أنه سيروم من يتعسَّف تزييفه بالكلام ! وأنا أُحاكمهم – كنتُ حيّاً أو ميتاً – إلى التجربة ، فإن الكلام يدخله الصدق والكذب (. . .) والتجربة وحدها هي التي تُثْبت الحقائق وتُذهب البواطل»[٢٧] !

ولسوف يُمكِّنك الطبيبُ الابن ، أبو مروان عبد الملك ، من أن تتعرَّف مزاجه وتستشفّ أَنَفَةً فيه ، وذلك عندما يحدثك أنَّ على الطبيب أنْ يمتنع عن ممارسة مايُسمّيه : «أعمال اليد» ،

تلك التي ــ وإن كانت متعلّقةً بالطب ـ جديرٌ بها أن تُؤدّى من قبل فئة من العاملين في المجال الطبّي هم «صُنّاع اليد»[٢٨] ! . ولنستمع إليه وهو يُدلي لنا بهذا «الاعتراف» إزاء التشريح والأعمال الجراحيّة ، يقول :

« . . . وأما الطريق العملي ، فإني لا أعرف أجزاءه ولا باطشتُ[٢٩] شيئاً من ذلك ، ولا عانيتُ تشريحاً ولا وجدت في نفسي مُعيناً على ذلك ، فإني متى رأيت الجراحات ضعفتْ نفسي حتى أكاد يُغْشى عليّ ، ولا رأيتُ مِدَّةً[٣٠] إلا تَهوَّعتْ معدتي وربما تَقَيَّأتُ !»[٣١].

ولنر إلى أسلوبه في وصف العلل . . . يقول في ذكر «داء الشقيقة» وتصنيف أوجاعه :

«وتَعْرِض «الشقيقةُ» ، وهو اسم جرت عوائدُ الناس أن يُجروه على ألسنتهم ، وذلك وجعٌ في قسم من الرأس ، والعليل قد يحس بأنه غائر في الرأس . فلننظر أي موضع يكون الوجع فيه ، فليس إلا : إما الغشاء الذي خارج القِحْف ؛ وإما أن يكون في الغشاء الذي تحت القحف ؛ وإما أن يكون في الغشاء الرقيق المحيط بالدماغ . وإنما خالف هذا الداءُ الداء المعروفَ بـ «البيضة»[٣٢]، أن هذا يكون في قسم واحد خاصة . . .»[٣٣].

وفي موضوعيّة عبد الملك بن زُهر العلمية ، وتقديره لما كان قد أخذ من أبيه الطبيب أبي العلاء زُهر، ولما تلقّى عنه أيضاً من علم جدّه عبد الملك ، يقول شارحاً كيف يعالج من أصيب بجرح غائر في رأسه بلغ العظم وتخلّفت عنه مِدَّةٌ وتبعته حمّى ، وحينئذ يجب «استفراغ البدن بالفَصْد في «القيفال»[٣٤] من الذراع اليمنى ، اللهم إلا أن يكون الجرح من الجهة اليمنى ، فإن رأيي أن يكون الفصد من الجهة المخالفة في مثل ذلك» ، ويتابع ، شارحاً ومنتقداً :

«وأما الأطباء النابتة[٣٥] ، فإنهم قد ائتمّوا بشيخ كان طبيباً بإشبيلية عُرف بـ «ابن فُضَيْل» ، كان يرى في الفصد الاكتفاء بأيسر مخالفة في الموضع[٣٦]، فكان يفصد ، في مثل هذا ، في «الأكحل»[٣٧] من تلك الجهة بعينها ، ويكتفي بأنّ الآفة فوق وبأن يستفرغ من أسفل . وكان الرجل قد أدركتُهُ ، وهذا رأيه ولم يكن لينصرف عنه . وأما أبي رحمه الله ، فكان لا يكتفي في المخالفة حتى تجتمع من جهات مختلفات ، وكذلك كان رأي جدي الأقرب عبد الملك رحمه الله ، وهو رأيي الذي أعتقده ولا أنصرف عنه ، ولم تزل التجربة تزيدني بصيرة فيه . . .»[٣٨].

وأخيراً ، هاهوذا يذكر أباه زُهرا ، في وَصْفات طبية كان يُقرُّها ، تتعلَّق بـ «ترياق إذا شربه الإنسان ، وقد سُقي السمّ والسم في معدته ، قيّأه ، حتى يتقيّأ السم»... يقول :

«هذه النُّسَخُ[٣٩] التي كان يُعوِّل أبي عليها ويقيمها ، وعليها كان وَقَع اختياره ، وأقمتها بين يديه ، ومن بعده ، رحمه الله » ، ثم يضيف : «وكان يُقيم معجوناً يُؤثره ويُفضِّله ، وجرَّبه مراراً في تسكين الأوجاع التي تكون في القولنجات[٤٠] ، وكان يُطلق به من به قولنج الريح ، وقولنج يُبْس الثّفل ، وقولنج ضعف الحركة الطبيعية التي في المِعَى للدفع ولم يذكره جالينوس[٤١]»[٤٢]

فكيف تحدّث صاحب «التيسير» عن جده ؟

وما الموضوعات التي ذكره في أثنائها ؟

وما الآراء الطبية التي تلقّاها «الابن» ، نقلاً عن أبيه ، الدالّة على علم «الجد» فتبنّاها وضعها موضع التطبيق ، ونَوَّه بها في كتابه ، هذا الذي حوى خلاصةَ علمه وتجربته ؟

٥ ــ الدُهن «البَشَامي» وتفتيت الحصى :

قلنا إن الجد عبد الملك توجّه ، في شبابه ، إلى المشرق لأداء فريضة الحج وللتطبُّب معا ، فلما عاد لم يكن بدٌّ من أن يحمل معه ، من التعاليم الطبّية ومن الأدوية ، ما يتّسم بالجِدَّة والطرافة في المجتمع الطبّي الأندلسي .

ومّما جاء به من دواء ناجع كان ما سمّاه «الابن» : «البَشَاميّ» ، الذي يقول في صفته إنه «دهنٌ أصفر اللون ، رقيق القوام ، عَطِر الرائحة حادُّها ، لطيف الجوهر»[٤٣] ينفع في تفتيت الحصى التي تُلمّ بالكُلَى والمثانة .

ويقول في وصف الأوجاع التي تُحدثها الحصى في كل من هذين العضوين : إن «وجع حصاة الكلى إنما يشتدّ منذ ابتداء تكوُّنها ، متزيِّداً إلى أن تندفع فَيبقى العَقْر ! وأما وجع حصاة المثانة ، فقليلاً ما يُحس بشدة وجعها حتى تتحرَّك !» ؛ ثم يصف الحصاتين ، قواماً وحجماً : «وهما أيضاً تختلفان : فإن حصاة الكلى أضعفُ تحجُّراً وتلزُّزاً ويُبْساً ، وحصاة المثانة أصلب وأشدّ تحجُّراً بكثير ، وصغير حصى المثانة كأكبر حجارة الكلى» ، وفي قابليتها للتفتُّت :

«وحجارة الكُلَى يُسرع التفتُّتُ إليها ، ويعسُر تفتُّت حجارة المثانة»[٤٤].

وفي أعراض حصاة الكلية ، يقول : «وكثيراً ما تخرُق ، في حال اندفاع الحصى من موضعها من الكلى ، خرقاً فيها ، فإن صادف عرقاً غيرَ ضارب وانقطع خرج دمٌ كثير مع البول ووحده ؛ وإن كانت الحصاة غائرةً ، فربما ـ عندما تندفع من الموضع ـ ينقطع شريانٌ ، فيكون الدم أشرقَ حمرةً وأرقّ جوهراً وأكثرَ كميةً بكثير جداً ، حتى إنه ربما نزف العليل ، ثم يتبع بعد ذلك بولُ المِدّة مُدّةً متّصلةً والوجع دائم ، حتى يبرأ العليلُ أو يموت. . .»[٤٥].

وأما حصى المثانة ، فإنما «يشتدّ وجعُها ويتفاقم أمرها عندما تندفع فتضرّ وتسلُخ بمرورها ، وخاصة إن كان الحصى كذّانياً[٤٦] فيعقِر في طريقه . وأما إذا سدّ المنفذَ ووقف في وجه إراقة الماء ، فإن الوجع حينئذ يتفاقم ، لأنه يعقر بخشانته في طريقه ولأنه يمنع الإراقة . وبسبب عَقْرِه تكون إراقة الدم. . .»[٤٧].

وفي العلاجات الكثيرة التي وصفها ابن زهر ، على مدى صفحات طوال ، لأمراض الكلى والمثانة : من حصى تتكوّن فيها ، ومن أورام ، ومن تلك العلة التي سمّاها «البَرْكار»[٤٨] ، ومن خروج البول بغير إرادة. . . يأتي أخيراً على ذكر دواء لتفتيت الحصى خارق للعادة ، يقول :

«ولم أجد بالتجربة شيئاً أسرع فعلاً في ذلك من دُهن كان جدي عبد الملك ، الحاج رحمه الله[٤٩] ، جلبه من المشرق ، وكان يعرفه بـ «البَشَاميّ» (. . .[٥٠]) ، وهو دُهنٌ أصفر اللون ، رقيق القوام ، عَطِر الرائحة حادُّها ، لطيف الجوهر ، قد شاهدتُ مراراً خَلْقاً فُتّتت به حصاهم في أربع وعشرين ساعة ، هذا أسرع ما رأيتُه وأعجبه ! والشربة منه كما هو من ربع درهم إلى ما حول ذلك ، غير أنه إن كان في الموضع عَقْرٌ ، فاخلط إليه مثله من دُهن اللوز الحلو ، فإن لم يمكنك هذا الدهن فإن معجون الأنيسون بمثل زِنَته من لعوق الكثيراء نافع ؛ وإن أمكنك دُهن البَلَسان الخالص فهو أيضاً يفتتها إذا شُرِب»[٥١].

ثم يحرص ابنُ زهر على أن يستشهد بحالةٍ عالج فيها ، وهو سجينٌ بمراكش بأمرِ عليّ بن يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين ، رجلاً من خاصّته يشغَل عنده منصبَ «خطيب» كان يشكو من حصاة. . . يقول :

«وأذكر ، عندما كنت في اعتقال الشقيّ علي ، وجّه إليّ خطيبه ـ وقَدْر الشهادة قَدر الشهود

ـ وبه حصاةٌ وهو في أسباب الهلاك ، فأفتيتُه بشرب ثلثِ واحد من درهم واحد من دهن البلسان ، فلم يلبث أن بالها بعد يوم ، أو أزيد من يوم . فاستغرب ذلك المعالجون والمختصون به وبالشقيّ صاحبه ، فسألني حيث ذُكر ؟ فقلت : قد ذُكر !»[٥١م].

٦ . ما في زَهْر «النَّيْلَوْفر» من خاصّية مسهِّلة :

وفي شأن ما عَرَف «الجدُّ» في زهر النَّيْلَوْفر من خاصية كان يجهلها معاصروه من أطبّاء الأندلس ، يَحْسن أن نشير إلى مدى شغف أطباء زمانه بالأدوية المفردة ، تلك التي تتألف خاصة من الأعشاب والحشائش والأزهار . وما كنّا ، في ذلك ، لنتجاوز الحديثَ عن فرحة أطباء القرن الماضي (الرابع الهجري) بوفود «الراهب نقولا» عليهم بقرطبة مبعوثاً من قبل إمبراطور بيزنطة «قسطنطين السابع»[٥٢]، وذلك بعد أن كان قد قدّم إلى صاحب الأندلس «عبد الرحمن الثالث»[٥٣] هدايا ملكية ، منها كتاب ديسقوريدس الشهير «المادة الطبية Meteria Medica»[٥٤] باللغة الإغريقية، فجاءهم هذا الراهب ، العالم باللغتين الإغريقية واللاتينية ، ليُعلِّم منهم مَنْ يُتوقَّع أن ينهض بفَهم محتوى هذا الكتاب[٥٥].

وكان ، يومئذ ، بقرطبة ، كما يقول الطبيب «ابن جلجل» ، «من الأطباء ، قومٌ لهم بحثٌ وتفتيش وحرص على استخراج ما جُهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية»[٥٦]. وهؤلاء الأطباء هم : حسداي بن شبروط الإسرائيلي ، ومحمد المعروف بالشُّجّار[٥٧]، والبسباسي ، وأبو عثمان الجزّار الملقّب باليابسة ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبدالرحمن بن إسحق بن هيثم ، وأبو عبدالله الصقلي الذي كان يتكلّم الإغريقية . فتعاونوا جميعاً في «تفسير» ماكان مجهولاً لديهم من أسماء عقاقير الكتاب ، و«تصحيح» الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ، وما أزالَ الشكَّ فيها عن القلوب ، وأوجب المعرفةَ بها بالوقوف على أشخاصها ، وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف ، إلا القليل منها الذي لا بال له ولا خطر له ، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية. . .»[٥٨].

ويُفهم من عبارة ابن جلجل أن الأطباء الأندلسيين لم ينقلوا الكتاب إلى العربية نقلاً جديداً ، بل هم أكملوا النقل «البغدادي» بالشرح والتفسير[٥٩]، ومما وضعه علماء الأندلس : «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس» لابن جلجل (٣٣٢ ـ بعد ٣٧٧هـ) ،

و «الأدوية المفردة» لابن وافد (المتوفى ٤٦٧هـ)[٦٠].

لقد وقفنا عند التطبيب بالأعشاب والنباتات وقفةً مستأنية ، وذكرنا الطبيبَ العشّاب الشهير «أبا المطرِّف بن وافد»[٦١]، الذي كان معاصراً لعبد الملك الجد . ومع أنّ ابن وافد كان وزيراً في بلاط طليطلة ، التي تبعد مسافةً عن دانية حيث يقيم الطبيب الوزير عبد الملك ، إلا أن هذا الطبيب النُّطاسيّ ، الذي بدا توّاقاً إلى الاستزادة من المعرفة بالطب النباتي ، لم يكن يكفّ عن تتبُّع التجارب التي تقع أمامه أو تلك التي يسمع بها ، ولا يتردد في تسقُّط أخبارها حيثما تكون . فكان لا بد من أن يتمّ اتصالٌ ، أو تلاقٍ ، بين الطبيبين الوزيرين يكون محوره : الطبّ ، وعلى وجه التحديد : الجانب النباتيّ منه !

فعند ذِكْر صاحب «التيسير» لمعالجة كَسْر العظام ، يتحدث عن ضرورة أن يُعدِّل الطبيبُ مزاجَ العليل بأن يستفرغ بالإسهال الخِلْطَ المُمْرِض . وههنا ينصح طبيبَهُ بأن يُكسِّب «الدواءَ قوةً مُقوِّيَة فَتَكْسِر من إكرابه ومن إخلاله بالقوى» بأدوية عيَّنها . . . ويقول ، آتياً على ذِكر زَهر «النَّيْلَوْفر» :

«ولبُّ الفستق حجابٌ فاصل من إكراب الحنظل ومن إكراب سائر الأدوية المكربة . وأما مايكون حجاباً ، بحسب الكيفيات الأولى ، فأقرب من هذا بأن تَحجُب الحدَّةَ من شحم الحنظل بلبِّ اللوز ، ومثل أن تحجب يُبْس الخربق بالنيلوفر ، وإن كان النيلوفر، مع ما يحجُب من الكيفيّات الأولى ، هو أيضاً يحجب من الإكراب ومن الإخلال بالقوى من حيث إنه عَطِرٌ ، ويُعين المسهِّلات من حيث إنّ فيه قوةً مسهِّلة ليست بالضعيفة»[٦٢].

ثم يذكُر «الابنُ» ما حدَّثه به أبوه عن «وصفة» كان الجدُّ كتبها في أحد المجالس العامة ، أورد فيها زهر النيلوفر ، قال :

«وكان أبي ، رحمه الله ، يُخبر عن أبيه جدي الأقرب ، رحمه الله ، أنه كتب في مجلس أحد الملوك في وقته عند وروده من المشرق ، دواءً مسهِّلاً ، وكان حاضراً المجلسَ الطبيبُ المشهور أبو المطرِّف بن وافد رحمه الله ، فنظر الطبيب المشهور ، فلحقه ، بموقع النَّيْلَوْفر من الأدوية، أريحيّةٌ عظيمة وأفرط في ذلك وتناهى استحساناً وطرباً !»[٦٣].

وما كان إفراط ابن وافد في إعجابه وتَناهيه في استحسانه وطربه ، من موقع زهر النَّيلوفر في تلك «الوصفة الطبية» التي كتبها الطبيب العائد حديثاً من المشرق ، إلا لبالغ اهتمامه بالأدوية المفردة. . . وهو الذي كان له في الطب ـ كما قال معاصرُه القاضي صاعد ـ «منزعٌ ومذهب نبيل، وذلك أنه لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ماكان قريباً منها ، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركَّبها ما وصل إلى التداوى بمفردها ، فإن اضطر إلى المركَّب لم يُكثر التركيبَ بل اقتصر على أقل ما يمكن منه. . .»(٦٤).

٧ . وحبَّات من خوخ تُبْرِىء من حُمّى الرِّبْع :

ومِمّا عَرَض له صاحبُ «التيسير» أيضاً ، من معالجات «الجد» النّباتية ، تلك المعالجة الطريفة(٦٥)، التي سمع بها ، على البُعد هذه المرة ، الطبيبُ ابن وافد ، وأبدى بها من الاهتمام ما حمله على أن يُكاتب ، من طليطلة ، أبا مروان حيث كان ، ويستفسره حقيقةَ تلك المعالجة وما الذي دعاه إلى فعلها ؟

ففي ذِكْر عبد الملك بن زُهر للحُمّيات ، من حيث معاودتُها العليلَ وطولُ مدّتها ، يُعدِّد أنواعها. . . فهي :

«حُمّى يوم» ، تَحدث في يوم ، وقد تتمادى أياماً ثلاثة ، ثم لا تُعاود العليل . «وأكثرُ ما تكون هذه الحمّى عن سبب من الأسباب البادية التي تطرأ على الإنسان من خارج . والأسباب الطارئة من خارج : إما عضبٌ شديد ، وإما همٌّ مُفْرِط ، وإما سهرٌ زائد ، وإما تعبٌ خارجٌ عن المعتاد ، وإما طولُ إقامةٍ في الشمس ، وإما أن يصيب الإنسانَ بردٌ مفرط ، أو يكون الإنسانُ يستحمّ بواحد من المياه الرديّة. . .»(٦٦).

وربما انتقلت حمّى اليوم إلى «حمّى غِبّ» ، تلك التي «يكون إقلاعها ، متى أقلعت ، ليس إقلاعاً صحيحاً ، بل يكون كأنه خِفَّةٌ من المرض ، ويبقى كذلك مدةَ الإغباب ثم يبدأ بالشدّة (. . .) وقلّما تكون إلا في الفتيان المحروري الأبدان ، وفي وقت الصيف . وغاية طول نوبتها اثنتا عشرة ساعة ، وتَغِبُّ مثلَ ذلك ، ثم تنوب ، ولا تزال كذلك حتى تغلِبَ قوةُ البدن فتُنْضِج الخِلْط المُمرض وتستأصل شأفته بالبُرء الصحيح (. . .) ويتقدَّم يومَ البرء يومٌ آخر يكون يومَ إنذار وبشرى بالبرء تظهر في يوم الإنذار»(٦٧).

وربما انتقلت ، كذلك ، حمّى اليوم إلى «حمّى بلغميّة» ، وهي «التي تنوب وِرْداً (. . .) وتكون عن تعفّن في بلغم . وهي حمّى تكون طويلة ، ونوبتها أطول من نوبة حمّى الغِبّ ، وحركتها على سبيل الصّلاح تكون أبطأ (. . .) وهذه الحمّى تطول مدّتها ، وأقل مدتها عشرون يوماً أو أحد وعشرون يوماً ، وربما زادت إلى الأربعين ، وربما طفّفت إلى الستين»[٦٨] .

وربما انتقلت حمى اليوم ، ثالثاً ، إلى «حمّى دمويّة» ، «وهذه الحمّى الدَّميَّة إنما تكون نوبةً واحدة من أولها إلى آخرها ، فإما أن يبرأ العليل وإما أن يموت . وهذه الحمّى قلما تكون إلا في الشبان ممّن لم يتخطَّ الثلاثين عاماً . وعلاجها بالفَصْد حتى يُغشى على المريض. . .»[٦٩] !

وربما انتقلت حمى اليوم ، أخيراً ، إلى «حمّى رِبْع» ، وهذه الحمّى «أعسرُ نُضجاً من حمّى الوِرْد بكثير ، وليست في الخبث على مثل تلك ، وإنما شرّها كلّه في عُسر نضجها ، ولا يكون البرء منها إلا في زمن الربيع . وهي تنوب في الرابع وتَغِبّ يومين . وأما طول نوبتها ، فلست أقول إنها أطول من نوبة حمّى الورد . وأما طول مدة المرض ، فقد رأينا مَن بدأت به هذه الحمّى في الصيف ولم تزل تنوب إلى الربيع ، وربما تمادت عامين . وقلما تكون إلا في الكهول وفي الشيوخ ، وفيمن يكون كثيراً ما يأكل اللحومَ المتناهية الغِلَظ والجبنَ الجاف ولحومَ الإبل (. . .) وهذه الحمّى إنما يُحِسّ المحموم فيها تكسُّراً وكأنهُ يُرمى بالحجارة من بعد. . .»[٧٠] .

وبعد استطراد المؤلف إلى ذِكْر البُحرانات والإنذارات[٧١] ، يعود إلى حمّى الرِّبْع ، العَسِرَة النُّضج الطويلةِ المدة ، فيقول : «إن علامات النضج فيها بالأشهر ، وليس يأتي فيها إنذار بيوم معلوم ، والغاية أن يكون الإنذار في شهر بشهر معلوم ، وقلما يكون انقضاؤها باستفراغ بل على طريق التحلُّل». . . ويقول : «وهذه الحمّى يجب أن يكون الطبيب لا يُخلي فيها أدويته من الترطيب ، وإذا علم أنها قد نضجت فلا يتّكل فيها على استفراغ من تلقاء الطبيعة ، بل يسقي العليل الدواء المسهِّل لهذا الخِلط. . .»[٧٢] .

إلى أن يقول :

«واسعَ في الترطيب كما تسعى في الإنضاج والتلطيف . وقد كان جدي الأقرب ، عبد الملك رحمه الله ، استصعب عليه علاج حمى رِبْع ، فأمر العليل أن يأكل كل يوم ثلاث حبّات من

الخوخ النَّضِج أياماً نحو العشرة ، ثم سقاه ، رحمه الله ، دواء مسهّلا ، فبَرِىء من مرضه بُرءاً كُلّياً !»[٧٣].

ويتابع :

«وعجب أطباء وقته من ذلك حينئذ ، ووقعت في ذلك رسائل كثيرة بينه وبين الشيخ الوزير أبي المُطرِّف بن وافد رحمه الله ، فإن أبا المطرِّف كتب إليه يتعرَّف حقيقةَ ذلك ؟ وما دعاه إلى فعله ؟ فكتب إليه [جدي] بما فعل ، وبما ظهر إليه ، وبمقصده في ذلك ، فأعظم الأمر استحساناً ! والرسائل في أيدي الناس موجودة !»[٧٤].

ولا غرابة في أن يُعجب بهذا الإجتهاد ابنُ وافد ، صاحبُ ذلك «المنزع اللطيف والمذهب النبيل» في الإبتعاد ما أمكن عن التداوي بالأدوية ، وأن يسعى ، بعدما بلغه الخبر ، إلى استجلاء حقيقة ما سمع ، وإلى تعرُّف الدوافع التي حملت عبد الملك بن محمد على أن يصف للمحموم في حمّى الرِّبع ، بعد أن استعصى عليه علاجها ، أن يأكل حبّاتٍ من الخوخ النَّضِج ثلاثاً في اليوم ليس إلا ، وعلى مدى أيام عشرة ، قبل أن يسقيه الدواء المسهل ، فيبرأ العليل من مرضه «برءاً كلّياً» !

وليت الرسائل ، التي تبودلت حول ذلك ، باقيةٌ إلى يوم الناس هذا ، لنرى كيف يتحاور الأطباء العلماء ، الوزراء ، في مثل هذا الإبتكار الطبي أيامَ الأندلس العربية .

٨- وبالخبز وحده ، مع مربّى الوَرْد ، قد يزول الهُلاس :

وفي معزل عن الطبيب الوزير أبي المطرِّف بن وافد ، يحدثنا صاحب «التيسير» عمّا يَعرض في الرئة من أورام. . . فإن الرئة ــ يقول ــ متى وَرِمَتْ «تبعَ وَرَمَها ضيقُ نَفَسٍ ملازم شديد ، وحمّى حادة بسبب مجاورة الرئة للقلب[٧٥]، وسُعالٌ مُلحّ ، وحمرةٌ في الوجه ، وحرارةٌ في النَّفَس ، ويكون التنفُّس سريعاً متواتراً (. . .) وأما النبض فيكون سريعاً متواتراً (. . .) فعندما ترى[٧٦] حمّى حادةً وسعالاً ملحّا ولا يكون مع السعال نَفْث[٧٧]، فلتعلم أن في الرئة شيئاً من الأوروام (. . .) فافصد العليل بحسب سنّه ، ومزاجه ، والوقت الحاضر من السنة ، وبحسب البلد. . . » ؛ فإن لم يرتدع الورم بعد الفصد ، وقَاحَ ، فإن في الـ -

«انتقاضَ اتّصال»، وهذا تُعْقِبه «حمّى الدِّقّ»[٧٨]، ثم السُلُّ، وبأَخَرَةٍ تورُّمُ القدمين.. ثم الموت!»[٧٩].

ويُقدِّر، في ثقة، مدةَ المرض التي تسبق موت العليل، استناداً إلى لون المِدَّة التي ينفثها: «فمتى آل ذلك إلى التقيُّح، فإن المِدّة إذا كانت سوداء أو خضراء فإن الأمر يتعجَّل في العليل ولا يجاوز العشرين يوماً وهي النهاية، وأما متى كانت المِدَّة بيضاء فإن مُدُته تطول جداً. وأما العلة فإنها لا تبرأ أصلاً ـ فيما رأوا ـ ويحدث به حينئذ العلّة المعروفة بـ «السُّل»، ويعرِض له حمّى الدِّق وتلازمه كذلك، وينفث دائماً ولا يسكُن سعاله»[٨٠].

ثم **يصف حال العليل**، الذي «يقلّ لحمه شيئاً فشيئاً ويذبل، حتى يصير جلده شبيهاً بالجلود المكرّشة، وتغور عيناه، ويحتدّ أنفه، وتتقوّس أظفاره، وفي آخر الأمر تراه لا يمكنه أن يفتح أجفانه إلا بكدّ (...) وفي تلك الحال لا يمهله بعدُ الموت. وليس ينتهي إلى هذه الحال إلا بعد أن ينفُث دماً كثيراً في الأغلب بعَقِب مِدَّة ثم ينفث مِدَّةً بعَقِب الدم، هكذا يتعاقبان فيه حتى ينتهي أمره فيَهْلك، وكل شيء بقدر»[٨١].

وبعد أن يتحدث عمّا يتوجب على الطبيب أن يتّخذه من تدبير ويُعدِّد الأدوية المناسبة، يضيف أن «المجموع من هذه الأدوية نافعٌ لمن قاحت رئته إن استعملت مشروبةً أجزاءً سواء، وخُلِط إلى صَفْوها أحدُ الأشربة المحمودة كشراب الشريس وشراب الورد الحديث»[٨٢].

وفي تأكيد ضرورة تلطيف غذاء العليل، يقول:

«أَفْضَل الأغذية له الخبزُ المختمر من البُرّ بمربّ الورد السُّكري»، ويتابع: «وكان أبي رحمه الله، يُخبر أن رجلاً في شرق الأندلس أصابته هذه العلة العظيمة حتى ذهب معظم لحمه، **فحمله أبوه جدي الأقرب عبد الملك**، رحمهما الله، على التزام هذا الغذاء، وعلى أكل الخبز المختمر بالزبيب، وبقي على ذلك مدةً طويلة جداً، فارتفع سُعالُه وهُلاسه[٨٣] وخَصِب بدنه، وبقي يحيا ليس به شيء من السوء، وطال عمره إلى أن مات جدي المذكور، رحمه الله، وبقي معاصراً لابنه ـ أبي ـ مدةً طويلة، وأظنه، رحمه الله، أخبر أنه، بعد مدة طويلة، مات الرجل من علّة أخرى»[٨٤].

ولا يفوت ابنَ زُهر أن يروي لنا قصةً عن حالة مماثلة ممّا وقع له في تجاربه الطبية...

يقول :

«ورأيت رجلاً ، وأنا فتى حديثُ السن ، من القرياتيين[٨٥] أصابته هذه العلة ، فألزمتُه مشروباً على نحو هذه السبيل وأن يغتذي بما رسمتُه ، فارتفع سعاله ، وعاش وخَصِب جسمه وعاد إلى عمله وأشغاله ، وبقي كذلك أعواماً ، إلى أن عرض هواءُ وبائيّ وكَثُر المُوتان[٨٦] في الناس ، فمات الرجل من حمّى عظيمة أصابته»[٨٧].

٩ . عندما يصفو شرابُ الصيدلانيّ !

وبعيداً عن وصف الأمراض والأعراض ، وداخل عالم الصيدلانيّين الذين يبيعون الأدوية المفردة ويُحضِّرون المركَّب منها ، نجد أن للجدّ عبد الملك رأياً ، في الصيدلانيِّ الذي يَغِشُّ ، تهكُّمياً لاذعاً ، أوحت إليه به غَيْرةُ الطبيب العالم وما يتمتّع به من خُلق دينيّ قويم .

وفي التفاتة نحو الماضي ، نرى أن أجدادنا العرب كانوا قد نظّموا صناعة الطب تنظيماً دقيقاً عرّفوا فيه بما للأطباء من الحقوق وما عليهم من الواجبات ، ووَكَلوا الإشراف على ذلك إلى ديوان الحسبة ، «فكان المحتسب ينظّم اختبارَ الأطباء وفحصَ معلوماتهم ويشرف على امتحانهم ويتعرّف على مقدرتهم للعمل ، فإذا رأى من أحدهم عجزاً أو تقصيراً منعه من امتهان الطب وحمّله مسؤولية ماقام به من أعمال...»[٨٨].

ولقد عُني أجدادُنا كذلك ، ولا سيّما الأندلسيون ، بالصيدليّات ، «فإنهم كانوا يتفحّصون أدويتها تفادياً من وقوع الغِشّ فيها وحدوث الضرر لمتّخذيها ، ويُسعِّرنها بأسعار معتدلة رِفقاً بالفقير ، ووضعوا قانوناً للأقْرَباذين[٨٩] يحتم على إجازة الحكومة بالتراكيب الخاصة من الأدوية ، مثل السموم وغيرها»[٩٠].

ومع تلك الرقابة ، التي تمرّس بها الأندلسيون ، كان الغِش يتسرّب إلى عمل الصيدلانيين . وفي حديث صاحب «التيسير» عن أنواع من الأدوية سمّاها «المعاجن الصغار» التي تَشيع بين الناس وتتوافر حتى في القرى[٩١]، وذكر منها :

«ترياق الأربع»[٩٢] و«ترياق الثوم»[٩٣]... يقول : «وهذه سهلة خفيفة ، يُقيمها الإنسان حيثما كان ، ولأن أدويتها موجودة في كل موضع ، ولا تعتاص على من أراد إقامتها .

وكذلك الأشربة المعروفة المعهودة ، فإنها موجودة في أكثر القرى ، وأكثر الناس يعرفون إقامتها وتركيبها»(٩٤).

وههنا يتوقَّف صاحب «التيسير» ، ليتحدث بضمير الطبيب اليقظ :

«غير أني أقول واحدة : إن الناس إنما يبيعون الأسماء ، مثل شراب الورد ! فإنهم إذا أقاموه ، إن أُقيم بحيث ينفع جاء لونه إلى السواد ، فهم لا يضعون فيه من الورد إلا ما لا يغيِّره !(٩٥). فإذا أفتى الطبيب ، مثلاً ، بأوقيّة من شراب الورد ، **أعطاه الصيدلاني سكراً عُقد منه بالماء شرابٌ لا طعم للورد فيه ! وكذلك يفعلون بشراب الأسطوخُدوس**(٩٦) وغيره ! فيكون المريض يحسب أنه يشرب شراب الورد ، أو شراب الأسطوخُدوس ، وهو إنما يشرب السكر والعسل قد أُزيلت رغوتها ، فلا ينتفع المريض بشيء ! وكذلك يفعلون في الأدهان ــ إلا نفراً يسيراً ــ فإنّا نسمع دهن الورد أو دهن البنفسج ، ولا رائحة لواحد منها في واحد من الدهنين !»(٩٧).

ثم يستدرك ، متحدثاً بضمير الإنسان :

«وليس هذا حادثاً في هذا الزمان ، بل كان ذلك منذ دهر طويل . ولذلك أخبرني أبي ، رحمه الله ، أن والده كان يقول : **إذا صفا شراب الصيدلانيّ كَدِرَ دينُه !**» . **فلذلك يجب أن تُختبر الأدوية بطعمها**»(٩٨).

١٠ . وفاة الطبيب «الجدّ» في «دانية» :

هذه ملامح لابن زُهر الجد ، عبد الملك بن الفقيه محمد ، الذي نال ، بعد رجوعه من المشرق ، الحظوةَ عند صاحب دانية التي استوطنها ، وفيها «اشتهر بالتقدُّم في علم الطب حتى بذّ أهل زمانه . ومات بدانية»(٩٩).

وفي شأن وفاته ، المكان والزمان ، يقول ابن الأبّار :

«واستوطن دانية ، وفيها توفي ، وبها قبره وقبر أبي الوليد الوَقّشي بإزاء الجامع القديم ، إلا أنهما لا يُعرفان . وقد بحثت عن ذلك ، أيام اشتغالي بالقضاء فيها سنة ٦٣٣ ، فلم أجد وقفاً عليها . ذكره السالمي ولم يذكر تاريخ وفاته ، وأحسبها في نحو السبعين وأربع مائة»(١٠٠).

لقد كانت حياةً حافلة ، حقاً ، تلك التي عاشها عبد الملك بن الفقيه محمد ، منذ خرج من إشبيلية صغيراً ، برفقة أبيه الذي استُصفيت أمواله فيها : فرحل الأب إلى شرقي الأندلس ، أو تنقّل بين مدن الثغر الأعلى ؛ على حين توجّه ابنه إلى المشرق ، ليعود طبيباً عظيماً ويصبح وزيراً في بلاط دانية ، فيملأ عصره علماً ومهابةً ، ويطير ذكره إلى سائر الأقطار .

فهل استطعتُ ، مع ضآلة المعلومات التي ألَمّتْ بها المصادرُ التاريخيّة ، أن أرسم ملامح لشخص هذا الرجل ، وأُقدّم قبساتٍ من علمه ؟

وما أغنى تاريخَنا بالرجال !



الهوامش والتعليقات

(١) وكان رأياً شاذاً ، ومتقدأ من المصادر ذاتها ! وسيرد تفصيل ذلك عمّا قريب .

(٢) كان الحديث عن الأخير نقلاً عن الأب ، لأن الابن لم يعاصر الجد !

(٣) أحبُّ أن أُنوّه بأن ما في «كتاب التيسير» من معلومات شخصية عن مؤلفه ، قد حَفَزَني إلى إعداد دراسة بعنوان «الطبيب الأندلسي عبد الملك بن زهر من خلال كتابه التيسير» ، ألقيتُها في المؤتمر السنوي التاسع لتاريخ العلوم عند العرب الذي أقامه معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب يومي ٢٤ و ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٨٥ ، وقد نُشرت الدراسة في مجلة «الدارة» ، العدد الثاني ، السنة الحادية عشرة ، المحرم ١٤٠٦ ، سبتمبر (ايلول) ١٩٨٥ .

(٤) عمر رضا كحالة : «ابن زُهر وأسرته» ، «أسبوع العلم الثالث عشر (الجمهورية العربية السورية سنة ١٩٧٢) الكتاب الأول : كلمات الافتتاح والمحاضرات العامة» ، ص ٢٧٣ و ٧٤ .

(٥) كتاب «الصلة» لابن بَشْكُوال ٢ : ٥١٤ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٦) الذي خلفه ، فيما بعد ، ابنه «المعتضد بن عبّاد» ، ثم «المعتمد» .

(٧) المَقّري : «نفح الطِّيب» ٣ : ٤٣٢ ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨ .

(٨) يعني إلى طليطلة .

(٩) كتاب «الصلة» ٢ : ٥١٥ .

(١٠) ما يُعرف اليوم في إسبانيا ببلاد «الباسك» .

(١١) مدينة تقع على مقربة دانية من طليطلة غرباً .

(١٢) تقع «وَشْقة» في أقصى الثغر الأعلى . ومما يُروى عن هذه المدينة أن المسلمين حاصروها «منذ فتح الأندلس حصاراً طويلاً ، حتى بَنَوْا عليها المساكن ، وغرسوا الغروس ، وحرثوا لمعايشهم ، واتّصل ذلك من فعلهم سبعةَ أعوام ، والنصارى في القصبة القديمة محصورون . فلما طال عليهم الحصار استأمنوا لأنفسهم وذراريِّهم ، فمن دخل في الإسلام مَلَكَ نفسه و ماله وحرمته ، ومن أقام على النصرانية أدّى الجزية ، فليس في وَشْقة من أهلها المتأصلين رجلٌ «ينتهي إلى أصل صحيح من العرب» ، الحميري : «صفة جزيرة الأندلس» : ١٩٥ (منتخبة من كتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار») ، نُشر بعناية المستعرب لافي بروفنسال (طبع ؟ تاريخ ؟) .

(١٣) «الصلة» ٢ : ٥١٥ .

وهذا يخالف ما أورده المَقّري ، فيما بعد ، من أن أبابكر ، بعد أن استُصفيت أمواله في إشبيلية ، «لحق بشرق الأندلس ،

وأقام فيه بقية عمره» ، «نفح الطيب» ٣ :٤٣٢ .
ومما يحسن ذكره هنا أن حفيد الفقيه ، الطبيب أبا العلاء زُهر (ابنَ الطبيب عبد الملك) ، لم يزل مقيماً بشرق الأندلس إلى أن كان عبورُ سلطان المرابطين «يوسف بن تاشفين» بجيوشه من العُدْوة المغربية إلى الأندلس وانضمامُ الجيوش الأندلسية إليه ثم خوضُ الجميع سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) حرباً ضد «أذفونش» (الفونس السادس ملك قشتالة) وانتصارُهم على جيوشه في معركة «الزلاقة» الشهيرة . . . وقد «شخص أبو العلاء معهم ، فلقيه المعتمدُ بن عباد (ملك إشبيلية) ، واستماله واستهواه وكاد يغلبه على هواه ، وصرف عليه أملاكه» ، أملاكَ جده التي كان قد صادرها جدُّ المعتمد ! «نفح الطيب» ٣ :٤٣٢ .

(١٤) وذلك ما بين ٤١٤هـ سنةَ استئثار إسماعيل بن عبّاد بحكم إشبيلية ، وبين ٤١٧ السنةَ التي يقول ابن وافد إن الفقيه محمداً جاء فيها طليطلة قادماً من إشبيلية .

(١٥) أي تعلّم الطب .

(١٦) القاضي صاعد الأندلسي ، الطليطلي (٤٢٠ ـ ٤٦٢هـ) ، «طبقات الأمم» : ١٢٩ ، مطبعة السعادة بمصر . ويتزيّد ، فيما بعد ، «ابنُ دِحْية» (٥٤٤ ـ ٦٣٣هـ) ، فيقول : إن عبد الملك «تولى رئاسة الطب ببغداد ، ثم بمصر ، ثم بالقيروان» ، «المطرب في أشعار أهل المغرب» : ١٨٥ ، ط مصر ـ الخرطوم ، ١٩٥٤ .

(١٧) مؤسس الدولة العامرية في دانية وميورقة . وكان واحداً من قوّاد المنصور بن أبي عامر أواخر عهد الدولة الأموية في الأندلس ، وقد خرج من قرطبة ببعض جيش الأندلس ، ودخل به دانية فاستقلَّ بها سنة ٤١٢هـ . وغزا مجاهد الإفرنج بأساطيله في جزيرة سردانية . وكان حازماً يقظاً شجاعاً ، عارفاً بالأدب وعلوم القرآن . توفي سنة ٤٣٦هـ ، فخلفه ولدُه «علي» . «الأعلام» ٥ :٢٧٨ ، ط بيروت . ١٩٨ .

(١٨) ابن أبي أصيبعة : «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» : ٥١٧ ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ببيروت ، ١٩٦٥ .

(١٩) كتاب «التكملة لكتاب الصلة» : ٦٠٦ ، ط مجريط ١٨٨٦ (عن كتاب «الطبيب العربي الأندلسي عبد الملك بن زهر» أسبوع العلم الثالث عشر ١٩٧٢ ، دمشق) .

(٢٠) «طبقات الأمم» : ١٢٩ ، وعنه أخذ ابن أبي أصيبعة في «طبقاته» .

(٢١) نقول هذا لأن عبارة ابن الأبار جاءت في سياق يدعو إلى التأمل : كان عبد الملك «من أهل العلم والفقه ، سالكاً طريقة أبيه ابي بكر في ذلك ، ومال إلى التفنن في أنواع التعاليم . ورحل إلى الشرق لأداء الفريضة ، ودخل القيروان ، بعد ذلك ، ثم قفل إلى الأندلس . . .» . وقد نقل هذه العبارة المقري فيما بعد ، فقال : «ومال إلى التفنن في أنواع التعاليم ، من الطب وغيره» ، «نفح الطيب» ٢ :٤٣٢ .

(٢٢) في مناقشة هذا الرأي «الشاذ» والتلطُّف بتفنيده ، نقرأ ما كتبه الدكتور عبد الكريم اليافي ، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، يقول : «ونفهم من هذا أنه (عبد الملك) لم يكن راضياً عن الإختلاف إلى الحمّامات ، في ذلك الوقت ، التي قد تعكّر المزاج وتزعج الأنفاس وتعرِّض لتفاوت الحرارة والبرودة ، لا عن الاستحمام والنظافة اللذين هما ركن مهم من حضارة العرب والإسلام يعتمدان على الغسل والوضوء» ، «معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية» : ١١٧ ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ .
أقول : إن لحفيده وسميِّه ، الطبيب عبد الملك ، رأياً في الحمّام يختلف عن هذا الرأي المنسوب إلى الجد ، معتدلاً ولكن متحفِّظاً ، ساقه في مطلع كتابه في جملة نصائح عامة قدمها بين يدي الطبيب ، يقول : «إن الحمّام إذا دُخل بمقدار معتدل على ما ينبغي ، وذلك كلَّ عاشرٍ من الأيام ، على خلوٍّ من المعدة من غير احتياج فادح إلى الطعام ، مُعينٌ على دوام الصحة ، ما لم يكن حرّ الزمان مفرطاً» ! «التيسير في المداواة والتدبير» : ٩ و ١٠ .

(٢٣) ويضيف ابن دحية : « . . . والمغرب ، واشتُهر بالتقدُّم في علم الطب حتى بذّ أهل زمانه» ! وقد انفرد ابن دحية ، دون سائر القدامى ، بأن خلع على طبيبنا لقب «الوزير الكبير» ، «المطرب» : ١٨٥ ، وجاراه في ذلك ، بعد أربعة قرون ، صاحب «نفح الطيب» ٢ :٢٤٤ و٤٣٢ .

(٢٤) تمييزاً له عن «الأب» أبيه الطبيب أبي العلاء زُهر ، وعن الجد» جده الطبيب أبي مروان عبد الملك بن الفقيه محمد ، وعن «الحفيد» ابنه الطبيب أبي بكر محمد بن عبد الملك . . . وذلك فضلاً عن ابن الأخير : الطبيب أبي محمد عبد الله ، وابن هذا الطبيب أبي العلاء محمد بن عبدالله !

(٢٥) «لا يزال عامُ مولد طبيبنا عبد الملك بن زُهر مجهولاً . وقد قدَّر المستعرب الفرنسي الطبيب غابرييل كولان أن يكون مولده في عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) أو بعد ذلك بثلاثة أعوام ، على حين رجَّح معجمُ لا روس الكبير عامَ ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) ، وهو التقدير الذي اعتمده المجلس الأعلى للعلوم في الجمهورية العربية السورية كي يتسنّى له أن يحتفل بالذكرى التسعمائة لمولده عام ١٩٧٢ فاضل السباعي : «مناقشة ابن أبي أصيبعة في مقولته عمّن دفع ابن زُهر لتأليفه كتاب التيسير» ، «المجلة العربية للثقافة» (نصف سنوية ، تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس) ، العدد السابع : ٥٨ ، الحاشية ٢ ، ذو الحجة ١٤٠٤ ، سبتمبر (أيلول) ١٩٨٤ .

(٢٦) عُني بتحقيقه الدكتور ميشيل الخوري ، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، وتولّت نشره المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس ، وتمّ طبعه في دار الفكر بدمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ .

وتجدر الإشارة إلى أن «كتاب التيسير» كان قد تُرجم إلى اللغة العبرية ، التي كان يهود الأندلس ينقلون إليها أمهات الكتب العلمية العربية . وعبر هذه القناة تمت ترجمة «التيسير» إلى اللغة اللاتينية ، وأصبح يُدرَّس في بعض الجامعات الأوربية طوال القرون الوسطى . ثم طبع ، في عصر الطباعة ، مراتٍ عديدة كاملاً ، وطبعت كذلك أجزاءٌ منه مراتٍ نكاد لانحصي . ولم يُطبع نصه العربي المرة الأولى إلا أخيراً !

(٢٧) «التيسير» : ٤٢٦ و٢٧ .

(٢٨) وبعضهم ممّن نُسمّيهم ، في مصطلحنا الحديث ، بالجراحين ، وبعضهم بالمساعدين والممرضين والخدم . . . مجلة «الدارة» ، مرجع سبقت الإشارة إليه : ١١٤ ، حاشية ١٩ .

(٢٩) المُباطشة : المعالجة .

(٣٠) المِدّة : القيح المجتمع في الجرح .

(٣١) «التيسير» : ٧٠ .

هذا ما صرّح به الطبيب عبد الملك بن زُهر بلفظه في كتابه . لذلك كان غريباً أن يعلن أحدُ الأطباء المعاصرين ، المعنيّين بتاريخ الطب العربي ، أنَّ وظيفة ابن زُهر كمدير للمستشفى ، أتاحت له فرصة العثور على كثير من جثث الموتى لتشريحها !! أنظر : دكتور عبدالله محمد العمراني : «الطب الأندلسي نظرياته وتطبيقاته» ، نشرة «الطب الإسلامي» ، العدد الثاني ، ٢ :٣٦٧ ، الكويت ، جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ ، مارس ١٩٨٢ .

هذا إلى أني لم أقع ، في كل ما قرأت عن عبد الملك بن زهر ، على أنه قد شغَل «وظيفة مدير مستشفى» . ولعل الباحث الفاضل قصد في ذلك الطبيبَ الجراحيَ الأندلسي الأشهر أبا القاسم خلف الزُّهراوي» (المتوفى ٤٢٧هـ) صاحب الكتاب الذائع الصيت «التصريف لمن عجز عن التأليف» !

وأمر آخر لاحظتُه في هذا البحث ، أن الأستاذ الباحث ، في تعداده لأطباء أسرة زُهر ، قد أغفل ذكر سادسهم : أبي العلاء محمد بن عبدالله ، وكذلك الإشارة إلى الطبيبتين الزُّهريتين : «أم عمرو» ابنة عبد الملك بن زهر (ابن عبد الملك المراكشي : «الذيل والتكملة» ٨ :٤٨٣ ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، أكاديمية المملكة المغربية ، ١٩٨٤) وابنتها (ابن أبي أصيبعة : ٥٢٤) .

(٣٢) وكان قد عُرِّف ، قبل ذلك ، بداء البيضة ، فقال إنه «وجع شديد يتقدّمه ، في أكثر الأحوال ، صداعٌ مزمن . وهذا الوجع يكون بأدوار ، في أكثر الحال ، لا يتعدّاها . ويبلغ من شدة الوجع أن لا يحتمل العليلُ أن يسمع صوتاً شديداً ، وإنما ذلك بسبب العصبة الآتية بحسِّ السمع إلى الأذن . . .» ، «التيسير» : ١١٧ .

(٣٣) «التيسير» : ١٢٣ .

(٣٤) الفصد : شقّ العرق ، وعند الأطبّاء : تفريق اتصال يتبعه استفراغ كلّي من العروق وبواسطتها من جميع البدن . و«القيفال» : عرق في الذراع ، كان القدماء يفصدونه لأمراض الرأس وسواها ، لأنه ذو صلة بالرأس أو أنه متجه إلى

الرأس .

(٣٥) يعني : صغار الأطباء !

(٣٦) المخالفة في الفصد ، عند قدماء الأطباء ، هي أن يتم الفصد في الجانب المقابل للعضو المريض . . . كأن تكون العين اليمنى رمداء ، فيفصدونه من اليد اليسرى .

(٣٧) «الأكحل» : عرق في الذراع ، ويُعرف أيضاً بـ «عرق الحياة» .

(٣٨) «التيسير» : ٢٦ .

(٣٩) أي الوصفات الطبية ، في مصطلحنا اليوم .

(٤٠) يقول الدكتور صبحي محمود حمامي : «تغيّر مدلول كلمة «القولنج» عبر العصور . فقد دلّت خلال قرون عديدة على مرض أعراضه الرئيسية الألم البطنيّ واحتباسُ الثُّفل ، واليوم تعني فقط الألم البطني المتناوب الشدة . وأما دلالتها كمرض ، فقد حل محلّها اليوم جميع العلل التي يحتبس الثفل فيها ، وهي كثيرة منها : الفتق المختنق ، والأورام البطنية على اختلاف أنواعها ، والتهابات القولون ، والانفتال المعوي ، وأمراض أخرى . . .» ، مقدمته في تحقيقه «كتاب القولنج» لأبي بكر الرازي : ٧ و٨ ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بالتعاون مع معهد المخطوطات العربية (الكويت) ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ .

(٤١) «جالينوس» هو أعظم أطباء الإغريق (١٣٠ ــ ٢٠٠م) بعد «أبقراط» (٤٦٠ ــ ٣٥١ ق . م) ، صنّف العديد من كتب الطب ، التي نُقل كثيرٌ منها إلى العربية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، فاعتمدها الأطباء العرب والمسلمون ، ويمكن القول إن الطب القديم قام على ما دوّنه أبقراط وجالينوس اليونانيان . ويُعد ابن زهر وأبوه من السائرين على خطا جالينوس ، هذا إلى أنّ للابن في كتابه «التيسير» إضافاتٍ وابتكارات قد توقّف عندها طويلاً العلماء العرب والغربيون .

(٤٢) «التيسير» : ٤٨ .

(٤٣) «التيسير» : ٢٧٧ .

(٤٤) «التيسير» : ٢٥٦ .

(٤٥) «التيسير» : ٢٥٧ .

(٤٦) الكذّان : حجارة هشّة كالمدر ، الواحدة كذّانة .

(٤٧) «التيسير» : ٢٦٢ .

(٤٨) وهي إفراط الكلى في إفراز البول ، الذي قد يكون «سُكريّاً» فهو ما يُعرف اليوم بـ «الداء السُّكري» .

(٤٩) لم يكتب لصاحب «التيسير» ، كما لاحظنا ، أن يحج إلى بيت الله الحرام ، ولا عرفنا أنّ أياً من أطباء الأسرة الزُّهرية قد أدّى الفريضة ، بعد الجدّ عبد الملك . ولا يَفُوت «الابنَ» هنا أن يشير إلى هذه «الميزة» التي تمتّع بها جده .

(٥٠) ويستطرد : «وكذلك لم أجد شيئاً ، في نَقْع المفلوج إذادُهن به مؤخّرُ رأسه مع فَقاره ، مثلَه» ، «التيسير» : ٢٧٧ .

(٥١) «التيسير» : ٢٧٧ .

وقد ورد في «قاموس الأطبّا» في مادة «بشْم» : «البَشام ، كسَحاب ، شجر كثير بأراضي مكة ، له ساقٌ ، وأفنان سبطة ، وورق صغار أكبر من ورق الصعتر ، وزهر دقيق يميل إلى الصفرة والبياض ، وثمر في عناقيد كثمر المحلب» ، ويضيف : «وهذا الثمر هو المعروف عند جميع الناس ب «حبّ البَلَسان» ، لأن المسمّى بالبلسان لا حبّ له ، ودُهْن هذه الشجرة (أي البشام) هو المسمّى عند الناس في زماننا ب «دُهن البلسان» ، وهذه الشجرة (البشام) بالحقيقة نوعٌ منه (من البلسان)» ، القوصوني المصري : «قاموس الأطبّا وناموس الألبّا» ٢: ٥٥ ، مصوّرات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩ .

أقول : وبسبب ما يتبدّى لنا من تباهي ابن زهر بهذا الدواء ، فإني أسمح لنفسي بالا سترسال في بيان أنّ دُهنه «يؤخذ بأن يُشْرط (شجره) بحديدة ، بعد طلوع الشِّعرى ، ويجمع ما يَرشح منه بقطنة ، وامتحانه : إجماده اللبن وانغساله عن القطنة وانحلاله في الماء ، وينفع دهنه «من شُرْب السموم ونهش الهوام شُرباً ، ويُفتّت الحصاة ، ويُعين على الحبل احتمالاً ، وينفع من استرخاء الذكر تدليكاً ، ومن الرعشة والقوة ، ويُحلل الإعياء ، وهو أحد أركان الترياق الفاروق . . .

والشربة من درهم إلى درهمين» ، «قاموس الأطبّاء (مادة بَلس : البلسان) ، ١ : ٢١٠ .

وأما القوصوني المصري ، «مَدْيَن بن عبد الرحمن» ، فهو من أعلام الطب في القرن الحادي عشر الهجري ، وكان رئيس الأطباء في «دار الشفاء» بمصر (البيمارستان الكبير المنصوري) .

(٥١م) «النيسير» : ٢٧٧ و ٧٨ .

(٥٢) الملقب ب «الأرجواني» (توفي ٩٥٩م = ٣٤٨هـ) ، وهو) ليس «أرمانيوس» (رومانوس الثاني) كما ذكر ابخن أبي أصيبعة نقلاً عن ابن جلجل الأندلسي ، فالثاني جاء إلى الحكم خلَفاً لذاك (حكمه ٩٥٩ ـ ٩٦٣م = ٣٤٨ ـ ٣٥٢هـ) . وهذا التصحيحُ مستمدٌ من بحث الدكتور عبد الله محمد العمراني ، نشرة «الطب الاسلامي» ، مرجع سبقت الإشارة إليه ، العدد الثاني ، ٣ : ٣٧٠ .

(٥٣) الملقب بـ «الناصر لدين الله» ، وقد استمرّ حكمه نصف قرن (حتى ٥٣٠هـ). وهو الذي أعلن «الخلافة» في أسرته الأموية المروانية مُنهياً بذلك عهد الإمارة. وكان حازماً وعادلاً وشجاعاً ومحباً للإصلاح حريصاً عليه. ويقال إنه وُجد بخط يده ما معناه أنه عَدَّ في حياته أيام السرور التي صفت له دون تكدير «فكانت أربعة عشر يوماً» ، «نفح الطيب» ١ : ٣٧٩.

(٥٤) أو «الأدوية المفردة» .

(٥٥) كان كتاب ديسقوريدس هذا قد تم نقله إلى العربية ببغداد ، أيام الخليفة العباسي «المتوكّل» (المتوفى ٢٤٧هـ) ، على يد «اصطفن بن باسيل» وبتصحيح وإجازةٍ من «حنين بن اسحق» .ووصلت إلى الأندلس هذه الترجمةُ التي لم تكن كاملة ، ذلك أن اصطفن ترك ألفاظاً كثيرة باليونانية لم يستطع أن يجد ما يقابلها بالعربية «اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسّره باللسان العربي» ، «طبقات الأطباء» : ٤٩٣ .

(٥٦) ابن أبي أصيبعة (نقلاً عن ابن جلجل) ، «طبقات الأطباء» : ٤٩٤ .

(٥٧) «الشُجّار» و «النباتيّ» و «الحشائشيّ» ، ألقابٌ مترادفة كان يُعرف بها **الأطباء المعنّيون بالتطبيب بالنباتات** .

(٥٨) «طبقات الأطباء» : ٤٩٤ .

(٥٩) في ما قام به هؤلاء الأطباء في هذا المضمار ، يتصوّر الدكتور العمراني دقائقَ عملهم ويُعبّر عنها تعبيراً حسنا ، فيقول إن «اللجنة» المؤلفة منهم قد «بحثت عن مقابل الاسم الإغريقي في اللغة العربية أو اللهجة الأندلسية . وكان لزاما أن تُسقط اللجنة من اعتبارها النباتات التي لا تنمو بالأندلس ، وأن تترجم فقط تلك التي تنمو بها ، مع إضافة النباتات الخاصة بالأندلس والتي لا توجد في الأصل الإغريقي . ولأجل هذا الهدف ، كان لا بد من الطواف بانحاء المملكة ، في رحلات استكشافية تجول في السهل والجبل ، في الداخل والساحل ، بغية جمع النباتات ، وجمع الملاحظات ، والموازنة . وبعبارةأخرى : إنجاز مهمة الدراسةوالبحث على خير وجه ممكن ، في ميادين علوم النباتات والصيدلة والطب» ، نشرة «الطب الاسلامي» ، العدد الثاني ، ٣ : ٣٥٩ .

وأقول : أحسب أن الباحث الفاضل قد جانب الصواب عند ما استهلّ قوله هذا بعبارة : «وتمّ تعريب الكتاب» ، إلا إذا كان يقصد بها : **تصحيح التعريب!**

(٦٠) الدكتور صلاح الدين المنجد : «مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس» : ٨ ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥ .

ويعدِّد المؤلف أسماء أطباء أندلسيين ومغاربة آخرين تابعوا المهمة ، هم : أمية بن عبدالعزيز والشريف الإدريسي والغافقي وابن الروميّة وابن البيطار ، نضرب صفحاً عنهم لأنّ زمنهم يتجاوز عصر طبيبنا عبد الملك الجد .

ثم يعلن ، في كتابه ، كشفَهُ عن أن هناك ترجمةً ثانية لكتاب ديسقوريدس ، لاحقةً للأولى زمنيّاً (بعدها بأكثر من ثلاثمئة سنة) ، قد نقلها عن اللغة السريانية «مهْران بنُ منصور بن مهران» (من النسخة التي كان قد وضعها حنين بن اسحق نقلاً عن اليونانية) ، بتكليف من السلطان «ألبي بن تمرتاش» (٥٤٧ ـ ٥٧٥هـ) أحد ملوك الأرتقيين التركمانيين (في دياربكر وماردين وميّافارقين) .

وقد عثر الدكتور المنجد على هذه الترجمة في مكتبة الإمام علي بن الرضا بإيران ، المذكورة في الكتاب ، بالألوان . وهذه

النسخة من أجل ما وقعتْ عيناي عليه من مخطوطات : جمال خط ، وتزويق ، وتصوير» ، والترجمة تدل على أن صلحبها «كان فصيح العبارة ، سلس اللغة ، قوي التركيب» ، وذلك خلافاً لترجمة اصطفن التي هي «ركيكة العبارة» .

وللتوسّع في هذا الموضوع ، اقرأ : الدكتور مختار هاشم : «ديسقوريدس وكتابه» ، مجلة «التراث العربي» (فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق) : ص‌ص ١٥٠ ــ ١٦٤ ، العدد المزدوج ١٣ و ١٤ ، محرم ــ ربيع الثاني ١٤٠٤ هـ/تشرين الأول ــ كانون الثاني ١٩٨٤ . وقد بذل الباحث جهداً مجدياً لاثبات أن ديسقوريدس هو «طبيب شامي يوناني [اللغة] من «عين زربى» ، وهي بلدة واقعة في شمالي سورية وتقع في يومنا هذا في الجمهورية التركية» .

(٦١) هو «عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي» (٣٩٨ ــ ٤٦٧هـ) ، سمّاه صاحب الأعلام : «ابن مهند» (٣:٣٢٦) ، وقد استوزر في عهد «يحيى بن ذي النون» ، الملقب ب «المأمون» ، الذي تملّك طليطلة ما بين ٤٣٥ ــ ٤٦٧هـ .

يقول معاصره القاضي «صاعد» الطليطلي (٤٢٠ ــ ٤٦٢هـ) إن الوزير أبا المطرّف «تمهّر في علوم الأدوية المفردة (. . .) وألّف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له جمع فيه ما تضمّنه كتاب ديوسقوريدوس وكتاب جالينوس المؤلفين في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب (. . .) ، وأخبرني عنه أنه عاني جمعه ، وحاول ترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها وأودعه إياه ، من تفصيل قواها وتحديد درجاتها ، من عشرين سنة ، حتى كمل موافقاً لغرضه مطابقاً لبغيته» ، «طبقات الأمم» : ١٢٨ ، وعن صاعد نقل ابن أبي أصيبعة .

(٦٢) «التيسير» : ٣٢١ ــ ٢٥ .

وقد عرّف الفوصوني ، في «قاموسه» ، بعد انقضاء سنمئة سنة ، بزهر النيلوفر ، قال : «النِّيْلَوْفر ، بالكسر ، اسم فارسي معناه : النيلّ الأجنحة (. . .) وهو ريحان معروف ينبت في المياه الراكدة ، وله بزر أسود وأصل كالجزر ، وألوانه مختلفة منها الأزرق والأحمر والأصفر والأغبر (. . .) ، وهو وشرابه مبرّد ، مليّن للطبيعة ، صالح للسهال(!) ، وللأوجاع الجنب والربة والصدر الحارة . . . » ، «قاموس الأطباء» ١:٢٠٠ .

(٦٣) «التيسير» : ٣٢٥ . ويُرجّح أن يكون الملك ، المشار إلى مجلسه في النص ، هو «مجاهد العامري» صاحب دانية .

(٦٤) «طبقات الأمم» : ١٢٨ .

(٦٥) ألم يرد في المصادر التاريخية أنه مال إلى «التفنّن» في أنواع التعاليم؟!

(٦٦) «التيسير» : ٣٩٠ .

وفي «فهرس المصطلحات» ، الملحق بكتاب «التيسير» والذي أعده الباحث الدكتور مختارهاسم ، واضعاً إزاء كل مصطلح مقابله باللغة الفرنسية ومشيراً إلى أن «الاصطلاح القديم لا ينطبق دائما على الاصطلاح الحديث» . . . ورد ، في الصفحة ٥٠١ : «حمى يوم Fievre ephemere" .

(٦٨) «التيسير» : ٣٩٣ و ٩٤ .

وفي «قاموس الأطبّاء» : «الغِبّ ، بالكسر ، من الحمّى : التي تأخذ يوماً وتترك يوماً» ، ١:٥٠ . وفي «فهرس المصطلحات» : «حمى غِبّ" Fievre Tierce» ، «التيسير» : ٥٠١ .

(٦٨) «التيسير» : ٣٩٤ و ٩٥ .

وفي «قاموس الأطبّاء» : «الوِرْد ، بالكسر ، من أسماء الحمّى . وعن الأصمعي : هو يوم الحمّى إذا أخذت صلحبها» ، ١:١٤٦ . وفي «الفهرس . . . » : «حمى عُفونيّة Fievre Septique, Putride» ، «التيسير» : ٥٠١ .

(٦٩) «التيسير» : ٣٩٥ .

(٧٠) «التيسير» : ٣٩٦ .

وفي «قاموس الأطباء» : «الرِّبْع ، بالكسر ، من الحمّى : أن تأخذ يوما ، وتدع يومين ، ثم تجيء في اليوم الرابع» ، ١:٢٥٥ . وفي «الفهرس . . . » : «حمى رِبْع Fievre quarte» ، «الير» : ٥٠١ .

(٧١) يقول ابن زُهر : «وقولنا بُحران ، إنما نريد حركةً عظيمة تكون من قوى البدن في دفع الخلط الممرض بقدرة الله (. . .) ولا بد لكل خبحران من يوم إنذار تتحرك فيه القوى حركةً أشد من المعتاد (. . .) فيعلم الطبيب أن البُحران قد

قرب . . .» ، «التيسير» : ٤١٠ .

وفي «قاموس الأطبّا» : «البُحْران ، بالضم ، لفظيوناني معناه : الحكم الفاصل (. . .) ، وعند الأطباء : هو تغيُّر عظيم يحدث في المرض دفعة : إما إلى الصحة وإما إلى العطب ، وسببه انتهاض الطبيعة المدبرة للبدن لدفع الموجب للمرض : فإن كان الدافع قوياً والمندفع مواتيا للدفع كان جيدا ، وإن كان بالعكس كان رديا ، وإن كان الأمر متوسطاً كان ناقصا» ، ١:١٥٢ .

وفي «الجدول . . .» : «بُحْران Crise» ، «التيسير» : ٤٩٦ .

(٧٢) «التيسير» : ٤١٥ .

(٧٣) «التيسير» : ٤١٥ .

الخوخ Pecher : «الخوخ تستعمل في مصر ، والدرّاقن في الشام (. . .) ، أما الخوخ في الشام فيطلقونها اليوم غلطا على الشجر المسمى Prunier (. . . د) هذا الشجر المثمر من الفصيلة الورديّة» ، الأمير مصطفى الشهابي : «معجم الألفاظ الزراعية» : ٣٨٥ ، ط مصر ١٩٥٧ . ومن منافعه ، التي ذكرها «قاموس الأطباء» : «الفجُّ منه قابض ، والحلو مليِّن صالح للمعدة يشهي الطعام» ، ١:١٢٠ .

(٧٤) «التيسير» : ٤١٦ .

(٧٥) يقول ابن زهر في موضع آخر: «بسبب قربها [أي الرئة] من القلب تكون شدة الحمى عند تورّمها، وتكون المدافعة والمناضلة ، من الينبوع بقدرة الله ، عنها» ، «التيسير»: ١٦٣.

(٧٦) مخاطباً الطبيب المعالج .

(٧٧) «النَّفث ، بالفتح : شبيه بالنفخ ، وأقل من التفل ، أو هو التفل بعينه . والنُّفاثة ، بالضم : ما ينفثه المصدور من فيه» ، «قاموس الأطبّا» ١:٧٩ .

(٧٨) الحمّى الدائمة ، الطويلة الأمد . وفي «الجدول . . .» : «حمى الدِّق Fievre hectique» ، «التيسير» : ٥٠١ .

(٧٩) «التيسير» : ١٦٠ ـ ٤٦ .

(٨٠) «التيسير» : ١٦٥ .

(٨١) «التيسير» : ١٦٥ .

(٨٢) «التيسير» : ١٦٩ .

ويقول ابن زهر : إن «ممّا ينتفع به مَن وقع في هذه العلة العظيمة ، أن تُحمى قطعة من «الإنْجبار» (فخّار كان يصنع ، في الأندلس ، من طين أخضر اللون طيّب الرائحة) ، ثم توضع القطعة في محبس يكون غطاؤه مثقوباً ثقبا يسع فيه الخنصر ، ويُصبّ على القطعة ما يعمّها من ماء الورد ليصعد بخارها ، ويكون العليل واضعاً فمه بإزاء الثقب عن بعد معتدل ليصل (إليه) ذلك البخار بما فيه من قوة مجففة وقوة عطرية. يستعمل ذلك مراراً في النهار» ، «التيسير»: ١٦٩ .

(٨٣) في «لسان العرب»: «. . . رجل مهلوس، وهَلَسه الداء يَهْلِسه هَلْساً: خامره. . . الجوهري: الهُلاس: السُّل [بالكسر]. ورجل مهلوس العقل: ذاهبه. ويقال السلاس في العقل والهلاس في البدن».

(٨٤) «التيسير» : ١٦٩ .

أقول : أنْ يكون هذا العليل ، الذي عالجه الجد ، ممّن كانوا «في شرق الأندلس» ، وأن يبقى «معاصراً» للأب بعده مدةً طويلة ، كما بيّن النص . . . ذلك يدل على أن الجدأقام في «دانية» عمره ، وأن الأب لبث فيها بعده مدةًلم يغادرها إلى إشبيلية سريعا .

(٨٥) القروين، بلغة أهل الأندلس.

(٨٦) المُوتان «بضم الميم وفتح الواو: الهواء الوبائي، وهذا المعنى هو المستعمل عند الأطباء»، «قاموس الأطباء ١:٧٤.

(٨٧) «التيسير»: ١٧٠.

(٨٨) الدكتور أحمد شوكت الشطي: «تاريخ الطب وآدابه وأعلامه»: ٣٥٨، جامعة حلب ١٩٨٢. وقدكان يتمّ، بإشراف المحتسب، استحلافُ الطبيب الأستاذ لتلميذه الطبيب الجديد القسمَ الطبي : «برئتُ من قابض أنفس الحكماء، فبّاض

عقول العقلاء . . . إن خبّأتْ نصحاً أو بذلت ضرّا . . .». ويقول الدكتور الشطي: إن مما كان يعهد به إلى المحتسب، أيضاً، أنه يمنع الخمر والبغاء، ويحذِّر الناس من تصديق الكهان والمنجمين، ويقوم بمنع القوابل من إسقاط أجنة الحوامل، ويمنع الجراحين من الجبّ والخصاء في الناس! المرجع ذاته: ٣٥٨، حاشية ١.

(٨٩) الأقرباذين: «كلمة يونانية الأصل، انتقلت إلى اللغة العربية عن طريق اللغة السريانية، في عهود الدولة العباسية، ويقصد بها: الكتابُ الذي نطلق عليه في الوقت الحاضر اسم دستور الأدوية Pharmacopee أو كتاب الصيغ الدوائية Formulaire. ويضمّ كلا الكتابين الأدوية المركبة، إلا أن الكتاب الأول يمتاز بوجود طرق تحضير العقاقير والأدوية المركبة مع طرق فحصها ومعايرتها وحفظها ومقاديرها الدوائية»، الدكتور أحمد زهير البابا: «أقرباذين القلانسي» لابن بهرام القلانسي المرقندي، مقد مة المحقق: ٥، جامعة حلب معهد التراث العلمي العربي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣.

(٩٠) الشطي: ٤٢٩، حاشية ١.

(٩١) خلافاً لما كان أطلق عليه: «المعاجن الكبار»، تلك «التي لا توجد إذا طُلبت»! «التيسير»: ٤٨١.

(٩٢) «وهو ينفع من الأوجاع»، «التيسير»: ٤٨١.

(٩٣) «فهو خير من هذا بكثير في قطع السموم»، «التيسير»: ٤٨١.

(٩٤) «التيسير»: ٤٨٢.

ويتضح من ذلك أن ابن زهر يبدو طبيب الفقراء، مثلما هو طبيب الملوك والسلاطين والخلفاء.

(٩٥) وبعبارة أوضح: إن شراب الورد، إن أقيم بحيث ينضج، جاء لونه ضارباً إلى السواد، ولكنهم لا يضعون فيه من الورد إلا ما لا يغير لونه!

(٩٦) ذكر ابنُ زُهر زهر الأسطوخُدوس غير مرة في تعداده للمفردات التي تُحضَّر منها بعض الأدوية، و «الاسطوخودُس، بالضم: اسم يوناني لنبات معناه حافظ الأرواح، أو اسم الجزيرة التي يُجلب منها، وهو نباتٌ له عيدانٌ دقاق، يميل إلى السواد، وورق صغار تميل إلى الغبرة، وزهر يميل إلى البياض، وحبٌّ دقيق صغير، وهو حرّيف مع مرارة يسيرة . . . خاصيته تنقية الد ماغ وتفريح القلب . . . وشرابه، والمربّا من زهره، من أنفع الأشياء لأ مراض العصب الباردة . . .»، «قاموس الأطباء: ١:٢٠٩. ويقول الشهابي: «يُزرع وينبت بريّاً في نواح كثيرة من لبنان، ويسمى: شمعنينة»، «معجم الالفاظ الزراعية»: ٣٨٥.

(٩٧) «التيسير»: ٤٨٢.

(٩٨) «التيسير»: ٤٨٢ و ٨٣.

(٩٩) ابن دِحْية: ١٨٥، ولم يذكر سنة وفاته. ومنه نقل المقري عبارته.

(١٠٠) «التكملة لكتاب الصلة» (عن كتاب «الطبيب العربي اوندلسي . . .»، مرجع سبقت الإشارة إليه: ٢٢ و ٢٣). وعلى هذا يصبح مستبعداً ماأورده ابن أبي أصيبعة (الدمشقي: ٥٩٦ـ٦٦٨هـ: من انتقال الجد «من دانية إلى مدينة إشبيلية، ولم يزل بها الى أن توفي، وخلّف أموالاً جزيلة، وكان غنيْ إشبيلية. . .»، فذلك ما لم ينقله أحدٌ من المؤرخين الأندلسيين أو المغاربة اللاحقين بعصر الجد.

■ ■ ■

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

(١) طبقات الأمم ، للقاضي صاعد الأندلسي (توفي سنة ٤٦٢هـ) ، مطبعة السعادة بمصر (سنة ؟).

(٢) كتاب التيسير في المداواة والتدبير، لأبي مروان عبد الملك بن زُهْر (ت ٥٥٧هـ) ، تحقيق الدكتور ميشيل الخوري ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليكسو) تونس ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ .

(٣) كتب الصلة ، لابن بَشْكُوال (ت ٥٧٨هـ) ، القاهرة ١٩٦٦ .
(٤) كتاب القولنج، لأبي بكر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق الدكتور صبحي محمود حمامي ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بالتعاون مع معهد المخطوطات العربية بالكويت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ .
(٥) أقرباذين القلانسي ، لابن بهرام القلانسي السمرقندي (ت ٦١٩هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد زهير البابا ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣.
(٦) المطرب في أشعار أهل المغرب، لابن دِحْية الكلبي (ت ٦٣٣هـ) ، طبعة مصر ــ الخرطوم ، ١٩٥٤ .
(٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٥ .
(٨) الذيل والتكملة، لابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ) ، السفر الثامن ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، أكاديمية المملكة المغربية الرباط ، ١٩٨٤ .
(٩) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، للمَقَّري (ت ١٠٤٠هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨ ، الجزءان : ٢ و ٣ .
(١٠) قاموس الأطبّا وناموس الألبّا ، تأليف مَدْيَن القوصوني المصري (كان حياً سنة ١٠٤٤هـ)، مصوَّرات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٦٩هـ/١٩٧٦ .

ثانياً : مراجع ودوريّات

(١١) معجم الألفاظ الزراعية ، للأمير مصطفى الشهابي، مصر ١٩٥٧ .
(١٢) مقدمة كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس ، للدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥ .
(١٣) كتاب الطبيب العربي الأندلسي عبد الملك بن زُهْر ، أسبوع العلم الثالث عشر ، دمشق ، ١٩٧٢ .
(١٤) كتاب أسبوع العلم الثالث عشر [الجمهورية العربية السورية سنة ١٩٧٢] الكتاب الأول : كلمات الافتتاح والمحاضرات العامة .
(١٥) التاريخ الأندلسي ، للدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم دمشق ــ بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨١ .
(١٦) معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، للدكتور عبد الكريم الباقي ، الشركة المتحدة للتوزيع بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ .
(١٧) تاريخ الطب وآدابه وأعلامه ، للدكتور أحمد شوكت الشطي ، جامعة حلب ، ١٩٨٢ .
(١٨) نشرة الطب الإسلامي ، العدد الثاني : الأبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الثاني عن الطب الإسلامي ، الجزء الثالث ، الكويت جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ/مارس ١٩٨٢م .
(١٩) مجلة التراث العربي ، فصلية تصدر عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق ، العدد المزدوج ١٣ و١٤، محرم وربيع الثاني ١٤٠٤/تشرين الأول وكانون الثاني ١٩٨٤ .
(٢٠) المجلة العربية للثقافة ، نصف سنوية تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس ، السنة الرابعة، العدد السابع ، ذو الحجة ١٤٠٤هـ/سبتمبر (أيلول) ١٩٨٤ .
(٢١) مجلة الدارة ، فصلية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض ، السنة الحادية عشرة ، العدد الثاني ، المحرم ١٤٠٦هـ/سبتمبر ١٩٨٥م .